

الحياة الطيبة

بقلم الأستاذ سلامه موسى

الحياة الطيبة أو طيبات الحياة هي غاية كل فرد منا ، وهي ليست الحياة السعيدة وإن كانت كذلك في الأغلب ، لأن السعادة تقتضي أن يتناسق الفرد مع المجتمع الذي يعيش فيه . ولكن إذا كان هذا المجتمع سيئا فإن من حق الفرد وواجبه ألا يتناسق معه ، وهو عندئذ يشقى لهذا التقاطع بينه وبين المجتمع ، ولكنا نحن البشر نستطيع أن نرتفع فوق أنفسنا ونرضى بالشقاء في سبيل سعادة أخرى هي سعادة دقيقة أئيمة تعلو على فهم البيئة التي نعيش فيها . وهذا هو ما أحسه المصلحون والصالحون في كثير من العصور الماضية والحاضرة . وحين تتدهور الأخلاق ويختل المجتمع وتزيف الأقيسة يصبح من واجب الفرد الرافق أن ينفر ويشذ مهما يجده من كراهية ومقت من أفراد المجتمع ، وهو إذا كان يشقى بهذه الكراهية وهذا المقت فإنه بشذوذه ونفوره يحاول إيجاد مجتمع صالح آخر ، ومن هنا سعادته .

ولكنا لحسن الحظ لا نجد أنفسنا على الدوام في هذا المأزق ، لأن طبقات المجتمع الذي نعيش فيه كثيرة ، ولذلك نجد فيها على الدوام البيئة التي نلتئم معها ونتناسق مع أفرادها فنجد السعادة التي نصبو إليها ، وقد يحدث النفور في أوقات قليلة ، ولكنه لا يشقى ، وإنما هو ينهبنا ويزيدنا فهما وتقديرا .

وعلى كل إنسان أن يخطط حياته ويرسم خارطة مستقبله بنفسه بما يتلاءم وكفائاته الصحية والثقافية والاقتصادية لكي يحقق الحياة الطيبة . ولكن هناك أشياء عامة تكاد تنطبق على كل فرد . وهي التي نعالجها هنا . فليأخذ منها كل قارئ بما يتفق وظروفه .

فنحن نعيش في حضارة صاخبة بألوان من الدعايات الصامتة والناطقة ، ونحن نستجيب لها ونتردد منها بما نظن أننا محتاج إليه . وقد يكون ظننا هذا خطأ فلا نجني سوى الإرهاق والاكتظاظ بنوافل غالبية الثمن قليلة الثمرة . فنحن أحيانا مثلا نكدم ببوتنا بالأثاث الذي لا فائدة منه والذي لم نشتره إلا لدعاية اجتماعية أو تجارية تحملنا على اقتنائه . وكذلك نكدم عقولنا باعتبارات اجتماعية لو أننا تأملناها بالعين المجردة والذهن المجرد لوجدناها صغيرة القيمة كبيرة التكاليف . وهنا يخطر غاندى بالبال . فليس شك في أنه يعيش الحياة الطيبة : رجل صالح مصلح يخدم وطنه . وقد يشقى أحيانا بالسجن وبالقطيعة بينه وبين براهمة الهند ومهارجتها . ولكنه يعيش الحياة الطيبة بقليل من ابن العزة وبشملة آستر جسمه لأنه لا يطلب السعادة ، بل يطلب الحياة الطيبة .

والمأمل للجتمع المتحضر يستطيع إذا سلط عليه ميكسكوب السيكلوجية أن يجد في أفراده أعراض المرض النفسى حين ينشدون السعادة بمجهود هائل يعود عليهم بالشقاء . والحياة الطيبة أيسر من هذا . وهى لا تحتاج إلى القصور الفخمة والأتومبيلات المظلمة والمائدة المكتظة بالألوان . وإنما حملتنا الحضارة على أن نقبس سعادتنا بالترف بعد أن ألفت في روعنا أن هذا الترف الذى يجهدنا ثمنه هو الرفاهية . مع أن الرفاهية رخيصة قليلة التكاليف . فنحن من الحضارة فى شبه "نيوروز" أو "ميكوز" أى مرض نفسى عصبي . ونحتاج الى ذكاء وإلى بصيرة حتى نحسن الرؤية والرؤيا ونميز بين الحسن والسيئ والضرورى والنافل من هذه الحضارة .

اذكر مثلا ذلك المجهود الذى يبذله من ينشد الثراء باعتقاد أنه السعادة فيقتر على نفسه وعياله ويعرم نفسه من الرق الشخصى بالتشقيف الدائم . ثم يحقق هذا الثراء حوالى الخمسين من عمره . فتكون عادة التقدير قد لازمته حتى لا يعرف أسباب الاستمتاع بماله . ثم يكون قد ثبت فيه الجهل وفات السن التى يمكنه أن يتنق فيها المتع الذهنية . فتل هذا الرجل لم يعيش الحياة الطيبة .

وكذلك الآخر الذى جاهد وثابر على الجهاد لجمع ثروة كبيرة . فإذا بهذا الجهاد يفضيه ويدمر أعضاء جسمه الرئيسية ، فهو مقعد أو كالمقعد عند ما يبلغ الخمسين من عمره . بل كذلك الآخر الذى تسلطت عليه الأنانية فى الرقى المادى فأهمل الرقى الروحى ولم يبال البر والصلاح . فهو ثرى ولكنه يجد الموت والكراهية من جميع الناس .

هؤلاء الناس وأشباههم قد كسبوا الدنيا ، ولكنهم خسروا أنفسهم . وهم لم يعيشوا الحياة الطيبة .

ولكن الحياة الطيبة على الرغم من أنها لا تحتاج إلى مجهود عظيم ليست مع صنع أيدينا نحن وحدنا . فنحن لن نستطيع أن نعيش الحياة الطيبة إلا إذا كانت لنا ميزة الصحة الحسنة الموروثة والطفولة السعيدة ، وكلتاها من صنع أبويننا ، بل من صنع أسلافنا . ومن هنا قيمة الأبوجينية ، أى ذلك العلم الذى يدعو إلى أن يكفل للأطفال آباء يمتازون بالسلامة الجسمية والذهنية . ومن حسن الحظ هنا أيضا أن الدين الذى يحملنا الأبناء عن الآباء فى هاتين الناحيتين قليل القيمة ، وهو لا يفتح إلا فى حالات نادرة . أما الطفولة فتبعتها كبيرة على الآباء . وعبءا عظيم ، بل عظيم جدا على الأبناء إذا ساء أسلوب العيش فيها . لأن هذا الأسلوب يلازمنا أو يكاد يلازمنا مدى حياتنا . فإذا تعلمنا فى طفولتنا أن نستجيب للعقبات الطارئة بالصراخ والعريضة أو بالبكاء والاستكانة ولم نتعلم مواجهة هذه العقبات فى شجاعة

تحقيقية ، فإننا سوف نشأ على هذا الأسلوب الذى يشقنا فى الشباب ، بل وفى الكهولة . وقد يكون سببا لأن نعلم إلى الفرار من صعوبات الحياة بالخمر أو أحلام الجنون .

فالحياة الطيبة تقتضى ترانا فسيولوجيا حسنا كما تقتضى طفولة سليمة من الاضطهاد والتدليل . وتبعه ذلك ليست علينا نحن ، بل على آبائنا . ولكن يجب ألا نتطعم الأمل فى الإصلاح بعد الفساد . حتى ولو كان هذا الإصلاح شاقا . فإننا كثيرا ما نعالج الأبناء من أمراضهم الميلاية ونقائصهم الموروثة ونتج فى ذلك . كما أن الشاب يستطيع عند ما يبسط صفحة حياته الماضية أيام طفولته أن يعين أما كن النقص فيها ويعالجها ويتغلب عليها .

وإذا تركنا هاتين النقطتين فإن سائر ما نحتاج إليه لكي نعيش الحياة الطيبة هو فى مقدورنا . أو يكاد يكون كذلك . لأن الشاب يختار ويميز ويرفض ويقبل . فهو قد لا يختار مدرسته . ولكنه فى الأغلب يختار الكلية كما يختار مهته وهوايته ومثلياته . واسنا نريد أن يفهم القارئ من كلمة الاختيار هنا معنى الاطلاق . كما أننا لا نريد أن ندخل فى النقاش العميق عن الاختيار والاضطرار . لأننا بالمنطق نستطيع أن نبرهن على أننا لا نختار شيئا . ولكننا بالواقع نحس حريتنا فى الاختيار والتمييز .

فإن الشاب يبدأ حوالى العشرين فى أن يكون لنفسه فلسفة توجيهية فى الحياة . وهذه الفلسفة — التى يرجع معظمها إلى استجابات الطفولة — تعين له السلوك العام فى المهنة والنمو والثقافة والمثليات والمقام الاجتماعى الخ . وهو إذا كان يقظا متنبها استطاع أن يحسن الاختيار بسهولة أو صعوبة تبعا لأحوال الطفولة .

وتحتاج الحياة الطيبة إلى أن يحسن الشاب اختيار مهته . وليست المهنة فى اعتبارنا وسيلة الكسب أو تحصيل العيش فقط ، وإنما هى التعبير الاجتماعى عن الشخصية لمحترفها . وهو حين يختارها عن حب وهوى فإنه يسعد بها ، كما أنه يؤديها على أحسن وجه ، بل لعله لحيه لها يرقها ويرفع بها إلى أعلى من مستواها السابق . أما إذا كان المقصود منها تحصيل العيش فقط — كما هو الواقع فى كثير من الأعمال التى يمارسها معظم الناس — فإن الشاب هنا يجب أن يتعوض من كراهته لمهته بما سميه الهواية . فإذا كان هواه الأسمى فى العلوم ثم اضطرته الظروف إلى عمل آخر يعيش منه فإن عليه أن يجعل هوايته علما من العلوم يشغل به فراغه .

والحياة الطيبة تحتاج إلى الزواج الموفق . وليس شئ يشقنا ويظلم الدنيا فى أعيننا مثل البيت الكره الذى نجد فيه الزوجة المتأخرة والأولاد الذين لا تتعلق أحشائنا بهم . وأعظم ما يكفل لنا السعادة الزوجية هو الاختيار الحسن للزوجة حتى تكون من طبقتنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فيمتزج الزوجان فى فلسفة توجيهية مشتركة تربطهما معا مصالحه الأولاد .

والحياة الطيبة تحتاج إلى النمو الذى لا ينقطع — النمو فى الثروة والمجتمع والثقافة . ولعل النمو الثقافى هو أعظم هذه الأشياء قيمة ، لأنه يرقى أعضاء البيت ويزيد الرؤيا الانسانية صفاء . ثم هناك أيضا الرقى الروحى بالصلاح والبر . وقد قيل أن الصالح يصلح نفسه ، ولكن المصلح يصلح المجتمع . فيجب لى نحقق الحياة الطيبة إن نكون صالحين مصلحين نقدم أنفسنا وزرقها ، ولكن نخدم المجتمع أيضا بأن نتعلق بالمثلثات وتدين وتلتحق بجمعيات البر والخير .

ونقرأ سير الأبرار ونسمو فوق أنفسنا ونباشر الخير بالعمل حتى نحسه بالمعاطفة . ويجب أن تقدر المال حق قدره فلا تعطيه أكثر من قيمته ؛ لأننا حين نفعل ذلك يعود هو فيملكنا بدلا من أن نملكه . فيجب أن يكون المال خادما وليس سيدنا .

خلاصة القول أن الحياة الطيبة ليست هى على الدوام حياة السعادة ، ولكنها أشرف منها ، وهى تحتاج فى أوجز كلام إلى :

- (١) تراث السلامة الجسمية والعقلية من الآباء .
- (٢) طفولة سليمة تربية .
- (٣) اختيار حسن للمهنة التى نحب .
- (٤) استخدام حسن للفراغ الذى قد يعوضنا من سأم المهنة التى لا نحب . وذلك باختيار هواية .
- (٥) زواج موفق .
- (٦) نمو ثقافى .
- (٧) صلاح وإصلاح وتدين .
- (٨) فلسفة توجيهية حسنة كأنها البوصلة التى تسترشد بها سفينة حياتنا .

سلامه موسى